الفصل السابع عشر

شخصية الزعيم

في شخصية «محمد فريد» اجتمعت الفضائل الوطنية، والمبادئ السامية، وصفات الزعامة الحقة، إلى جانب الأخلاق الكاملة، والطباع الكريمة، فهو حقًّا أمة في رجل، ورجل في أمة.

صفاته وأخلاقه

كان قمحي اللون، جميل الصورة، متوسط القامة، مهيب الطلعة، عريض المنكبين، بدين الجسم؛ ولكنه مع بدانته موفور النشاط، جم الحركة، لا يكل من العمل ولا يمل، براق العينين، كثير الابتسام، سريع الكلام، شديد الذكاء، قوي الذاكرة.

وأهم أخلاقه: الصدق والإخلاص، والصراحة، والوفاء، الصبر، والثبات والشجاعة، وقوة الإرادة، والجود، والكرم، بله التواضع وطيبة القلب، وإنكار الذات، ودماثة الأخلاق، فكان في شخصه مجموعة من الفضائل العظيمة، والأخلاق القويمة.

إخلاصه ووطنيته

وأولى هذه الفضائل، إخلاصه، ووطنيته المجردة عن الأهواء، المنزهة عن المطامع الشخصية.

كان يرى حق الوطن فرضًا عليه يؤديه لبلاده، لا يقبل في أدائه نكولًا أو تراجعًا، ولا يبتغي على جهاده جزاء ولا شكورًا، لا يعرف للإخلاص حدًّا يقف عنده؛ بل يعتقد أن كل ما يبذله في سبيل مصر من جهد ومال، وجاه ومكانة، وصحة وحياة؛ إنما هو الراحة الكبرى لنفسه ولضميره، وتلك لعمري أقصى درجات

الإخلاص؛ ولا جرم فإن مصدر هذا التفاني في الإخلاص، والوطنية التي لا تخبو نارها، هو الإيمان بالله، فقد كان فريد مؤمنًا حقًّا، قوي الإيمان، ثابت العقيدة، سليم الوجدان، كان إيمانه هو الينبوع الفياض الذي يستمد منه إخلاصه ووطنيته، فلا غرو أن كان يحتمل الشدائد والمتاعب، راضيًا باسمًا، شأن المؤمنين الصادقين، الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت وطنيته سليمة المعدن، صلبة العود، لا تنثني أمام العقبات ولا تنال منها المغريات، ولا تشوبها المطامع المادية، أو المآرب الذاتية.

لقد كانت كلمة واحدة يجري بها لسانه كافية لأن تبدل عسره يسرًا، وغربته نعيمًا مقيمًا، وجاهًا عريضًا؛ ولكنه بقي ثابتًا كالطود، راسخًا كالأهرام، فكان آية الوطنية.

شجاعته

كان شجاعًا مقدامًا، لا يبالي الأخطار، ولا يضعف أمام الشدائد، ولا يخشى غضب الأقوياء، ولا يرهب سلطانهم.

بهذه الشجاعة العظيمة استطاع أن يضطلع بزعامة الحركة الوطنية، بين أعاصير المحن والأحداث، زهاء اثنتي عشرة سنة، لم تخذله خلالها شجاعته لحظة ولا ناله في أثنائها ضعف ولا وهن.

ولولا هذه الفضيلة لفقدت الحركة الوطنية جلالها وروعتها؛ بل لطويت إلى حين لا يعرف مداه صفحتها؛ لأن الشجاعة كما هي أول سلاح للجنود في ميادين القتال، فإنها أول عدة للمجاهدين في الحركات الوطنية، وكم من حركة وطنية سرى إليها الانحلال، وفقدت كيانها وحياتها، عندما فقد زعماؤها أو جنودها الشجاعة في ساعة الخطر.

كانت هذه الشجاعة طبيعية في الفقيد، امتاز بها في حياته الخاصة، وحياته العامة، لست أدري عمن تلقاها، هل ورثها عن أبيه، أو عن والدته، أو عنهما معًا؟

أم هي غريزة أودعها الله فؤاده، فتكونت ونمت على توالي السنين؟ قد يكون هذا أو ذاك، وإنما الذي يهم ذكره أن هذه الصفة العظيمة قد امتزجت بشخصه، حتى صارت علمًا له، ولازمته طول حياته، في السراء والضراء.

كثيرون من الناس يتحولون عن الجهاد عند الصدمة الأولى أو الثانية تصادفهم في طريقهم، فينكصون على أعقابهم أمام الخطر أو شبح الخطر، بل أمام الوهم والخيال؛ أما الفقيد رحمه الله، فكان يتلقى الصدمات والضربات بقلب عامر بالشجاعة، فلا ينثني عن طريقه ولا يتحول، وتلك أعظم فضائله وسجاياه؛ وزاد في شجاعته، قوة إيمانه وعقيدته، فكانت هذه العقيدة سندًا لشجاعته وإقدامه ومعينًا لا ينضب لفضائله وأخلاقه الكريمة.

بهذه الشجاعة، وبهذا الإيمان، حمل عبء الجهاد في أشد الأوقات خطرًا وحرجًا، تولى رياسة الحركة الوطنية في وقت استقرت فيه السياسة المعروفة بسياسة الوفاق بين الخديوي والاحتلال (وقد شرحناها في موضوعها ص٧٨)، فاستهدف لحرب السلطتين معًا، وغضبهما معًا، ومع ذلك لم يبال حربهما، ولم يخش غضبهما وتحالفهما، واحتمل أذاهما معًا، وسار في طريقه قدمًا لا يلوي على شيء، ولا يفكر إلا في القيام بالواجب، مهما كانت العقبات، ومهما كانت العواقب.

كانت الشجاعة خلقًا ثابتًا في فؤاده، وكانت أيضًا محببة إلى نفسه، فكان يدعو إليها في خطبه، ويجب أن يراها خلقًا شائعًا في الأمة، وبخاصة تلاميذه وأنصاره، وكان يعجبه منهم أن يكونوا على غراره في الشجاعة الأدبية، وقد عودهم على أن يكونوا رجالًا ذوي أخلاق قويمة؛ لأن الشجاعة الأدبية هي قوام الفضائل جميعًا.

وفاؤه

كان فريد آية في الوفاء، ومثلًا سائرًا في حفظ العهد، اعتبر ذلك في وفائه لزميله وصديقه مصطفى كامل، فلقد أيده وناصره طول حياته، وعضده بماله وقلمه

ولسانه، ثم ظل على وفائه له بعد وفاته، فحافظ على تراثه الوطني المجيد، وتعهد الغرس الذي بذره معه وسقاه بإخلاصه وتضحياته، ورواه بمهجة فؤاده؛ فنما الغرس وترعرع، بحيث لو عاش مصطفى أكثر مما عاش، لما استطاع أن يرعى غرسه بأكثر مما رعاه فريد، ولا غرو فقد اشتركا معًا في بذره، وأنشآه النشأة الأولى.

كان وفاؤه لمصطفى جزءًا من وفائه لمصر، لقد أوفى بعهده لها، وجعل حياته وقفًا على الجهاد من أجلها، وضحى بماله وجاهه وصحته وحياته في سبيلها، وليس في الدنيا وفاء أقوى وأروع من هذا الوفاء.

مضاؤه وقوة عزيمته

ومن أخص مزاياه المضاء وقوة العزيمة، كان يذلل بقوة إرادته كل عقبة تعترضه، وما أكثر ما اعترضه من عقبات، وما قام في سبيله من مصاعب!

حدث إضراب من عمال اللواء في (نوفمبر سنة ١٩٠٨م) (ص٩٣)، بدسائس خصوم الحركة الوطنية، وتحريض من بعض الموظفين، وكان الظن أن يضعف الفقيد أمام هذا الإضراب، ويغري الدساسين بالاستمرار في دسهم؛ ولكنه رفض مطالب المضربين، وأصر على فصلهم، ولم يلبث أن استبدل بهم غيرهم، وبعث الحماسة في نفوس الشباب، ومنهم طلبة الحقوق، فجاءوا متطوعين للعمل في اللواء، واشتغل بعضهم في التحرير، وبعضهم في صف الحروب، فاستمر صدور اللواء برغم إضراب عماله، ولم يتعطل يومًا واحدًا، ولما أخفق إضرابهم عادوا خاضعين.

وحدث في سنة (١٩١٠م) أن وقع خلاف بين ورثة المرحوم مصطفى كامل على ملكية (اللواء)، لسان حال الحزب الوطني حينذاك، أدى إلى تدخل القضاء في شأنه، وعين يوسف بك المويلحي حارسًا قضائيًّا عليه، فتسلم الجريدة على يد محضر من المحكمة المختلطة يوم (٢٨ فبراير سنة ١٩١٠م)، وقد أراد الحارس أن يتدخل في سياستها وتحريرها، فرفض الفقيد أن يذعن لهذا التدخل، ورأى أن كرامة الحزب لا

تتفق وبقاء اللواء عرضة لسيطرة الحارس على شئونه، وبادر من فوره إلى إنشاء جريدة يستقل بإدارتها وتحريرها، ولا يكون لغير الحزب إشراف عليها، فأنشأ جريدة (العلم)، وظهرت في (٧ مارس سنة ١٩١٠م) بعد أسبوع واحد من تدخل الحارس في شئون اللواء؛ أي أن تأسيس (العلم) وما استلزمته من استعداد، وجهود وتنظيم، لم يستغرق سوى هذه الأيام القليلة، وهو عمل يشهد للمترجم بالهمة الشماء، وقوة الإرادة.

وكلما كانت الحكومة تعطل صحيفة الحزب الوطني، كان يعد العدة لإخراج جريدة أخرى للحزب بأسماء أخرى، فتظهر في اليوم التالي للتعطيل.

ولقد رأيت مما كتبناه بالفصل السادس (ص٢١٩) كيف كان موقفه رائعًا حين منعت الحكومة الفرنسية عقد المؤتمر الوطني بباريس في (سبتمبر سنة ١٩١٠م) قبل الموعد المحدد لانعقاده بأيام معدودة، فقد كان الظن أن لا ينعقد المؤتمر في عامه هذا لضيق الوقت، وكثرة ما أنفق من التكاليف لإعداد معداته بباريس، ولكن عزيمته المترجم أنقذت الموقف، فقد قرر عقد المؤتمر ببروكسل، في الموعد الذي كان محددًا له بباريس، وكان الوقت لا يتسع حقًّا لتنفيذ هذا العمل؛ إذ إنه أبلغ قرار المنع قبل موعد اجتماع المؤتمر بأسبوع، ومع ذلك تذرع هو وزملاؤه بكل ما أوتوا من همة وعزيمة، حتى اجتمع المؤتمر ببروكسل في الموعد الذي كان محددًا له بباريس، فكان ذلك الفوز آية في المضاء والعزيمة.

ثباته على المبدأ

يتلخص مبدأ الفقيد في ثلاث كلمات: الاستقلال، والجلاء (وهو الرمز الصحيح للاستقلال، ولا يكون استقلال بدونه)، والدستور، ولقد ثبت على هذا المبدأ لم يقبل فيه هوادة ولا تساهلًا، ومن كلماته المأثورة في هذا الصدد قوله: «لا ينتظر أحد منا أن نحيد عن مبدئنا ما دام فينا عرق ينبض أو تجري في أجسامنا نقطة دم».

وقد حارب من أجل هذا المبدأ كل سلطة، وكل فرد، وكل هيئة لا تدين به، ولا تعمل عليه، ولقي في سبيل ذلك ما لقي، ولما رأى أن الخديوي قد جنح لسياسة الوفاق مع الاحتلال، قرر الابتعاد عنه، وخاصمه استمساكًا بمبدئه، وسار في طريقه مستقلًّا عن كل سلطة، بعيدًا عن كل سلطان.

ولما اشتد الخلاف بينه وبين الخديوي تبعًا لاشتداد سياسة الوفاق رغب إليه كثير من أنصاره أن يعدل عن سياسة الجفاء تجاه الخديوي، ويسلك سبيل التقرب إليه، وأفضوا إليه أنهم ينفضون من حوله إذا هو استمر في خصومته معه، فكان جوابه لهم أنه لا ينثني عن مقاومة الاحتلال، وكل من يلوذ به أو يحالفه، ولو كان ولي الأمر، وانفض بعضهم فعلًا من حوله مجاملة للخديوي، ومع ذلك لم تضعف عزيمته، وظل ثابتًا في جهاده ضد السلطتين.

ولما شرعت الحكومة في محاكمته أول مرة في قضية (وطنيتي) سنة ١٩١١م، أرسل إليه الخديوي من يبلغه باسمه وعده بحفظ القضية، مقابل أن يزوره ويقبل اتباع خطته، ويسايره في سياسة الوفاق، فرفض. وقبل أن تقام ضده الدعوى العمومية، وحكم عليه فيها بالحبس ستة أشهر. وآثر السجن على التساهل في مبدئه.

وبعد أن هجر مصر إلى منفاه، اتسع مجال الحكومة لشل الحركة الوطنية، وصرف الناس عنها، ولما بلغه انفضاض بعض أنصاره من حوله، والتحاق بعضهم بالوظائف، وانحيازهم إلى جانب الحكومة، لم يكترث لذلك، وكتب لذلك، وكتب في (مايو سنة ١٩١٤م) إلى من أبلغه ذلك يقول: «أما أنا فسياستي لن تتغير، ولو بقيت عليها وحدي». فلم يدع للضعف والتردد إلى قلبه سبيلًا.

قاوم من أجل مبدئه قوتين كبيرتين وهما:

١ - الاحتلال.

٢ - الخديوي حين اتبع سياسة الوفاق مع الاحتلال.

ثم قاوم الترك حين بدت نياتهم نحو مصر سنة (١٩١٥م) في أثناء الحرب العالمية الأولى. كما تقدم بيان ذلك (ص٣٩٢).

فمخاصمته لهذه القوات الكبيرة، في تلك الظروف العصيبة التي مر بك شرحها، وفي وقت خذله فيه كثير من أنصاره، لهي أكبر مظاهر الثبات على المبدأ، وأروع آيات المحافظة على العقيدة.

صبره على المكاره

لا مراء في أنه مضرب الأمثال في الصبر على المكاره، لم يجاره أحد من الزعماء والمجاهدين فيما استهدف له من الكوارث، على اختلاف صنوفها، ولا في قوة الصبر عليها، ومرجع هذا الصبر إلى عقيدته وإيمانه، ثم إلى قوة إرادته.

ومن كلماته المأثورة التي صارت علمًا عليه. قوله: «إننا نعرف كيف نصبر على المكاره؛ ولكننا لا نعرف التسليم في حقوقنا، ولا التنازل عن مطالبنا».

وقوله: «نحن قوم تذرعنا بالصبر على الكوارث، واتخذنا الثبات شعارًا لنا. لا يلوينا عن غايتنا اضطهاد، ولا نتقهقر إلى الوراء مطلقًا».

وفي الحق أنه قد صبر صبر أولي العزم من الكرام المجاهدين، على كل المصائب التي لاقاها، وكانت معظم سني حياته السياسية سلسلة من المحن والمكاره، فقد صبر على السجن، وصبر على فقد ثروته الطائلة في سبيل الجهاد، وصبر على المصائب العائلية التي امتحنه الله بها؛ إذ فقد اثنتين من كريماته، وهما في ريعان الشباب. وجاءه نعيهما وهو في منفاه؛ إحداهما في سنة (١٩١٥م)، والأخرى سنة (١٩١٦م). وصبر على آلام النفي والتشريد ثماني سنوات متوالية. وصبر على المرض، ينتابه من حين لآخر. واشتد به في أواخر أيامه. وصبر فوق هذا وذاك على تنكر الكثيرين من معاصريه؛ بل من أنصاره له، وانفضاضهم من حوله في أشد الأوقات حرجًا، وإنك لتلمح في الخطاب الآتي الذي كتبه في أشد سنوات النفي

وأقساها مقدار ما عانى من المكاره على تعاقب السنين، ومبلغ الصبر الذي راض نفسه عليه، واطمأن إليه، حتى عده في خطابه نعمة من نعم الله عليه، كتب هذا الخطاب من برلين في (٧ مارس سنة ١٩١٧م) إلى المرحوم الدكتور أحمد فؤاد، ردًّا على تعزيته إياه في وفاة كريمته. قال: «وقد ألهمني الله الصبر على هذه المصائب المتكررة، وأعانني بفضله وكرمه على تحملها. كما أعانني على تحمل ما لاقيته في حياتي السياسية من أنواع الخيانة والغدر والانقلاب. وأملي في وجهه تعالى أن يديم عليَّ مننه المتتالية، وأن يؤيدني من عنده، فيما بقي لي من السنين القليلة، في هذه الحياة الفانية، إنه لا يضيع أجر من أحسن عملًا».

فهذا الكتاب الكريم يرسم لنا صورة فريد، في أروع مظاهر البطولة ويصور لنا إيمانه الثابت وقلبه الكبير، وخلقه العظيم، وصبره الفريد على الكوارث التي أصابته في حياته.

شممه وإباؤه

كان للفقيد نفس عالية، تتعلق بالعظائم، وتترفع عن الدنايا والصغائر، وتمقت الذلة الهوان، ومن أخص سجاياه الشمم والإباء، لم يرض لنفسه قط طوال حياته أن ينزل عن هذا الخلق العظيم، ولم يستطع الأقوياء أن يذلوه أو يمتهنوه، أو يحولوه عن مبدئه، أو يتخذوه مطية ذلولًا لأطماعهم وشهواتهم.

ظن بعض خصومه على أثر هجرته إلى المنفى، وما احتمله فيه من آلام، أنه قد تلين قناته، أو يعدل عن خطته في الجهاد، فأشاعوا عنه حينما كان بالأستانة أنه أرسل قبل سفره من مصر برقية إلى السير إدوارد جراي وزير خارجية بريطانيا، يشكو إليه فيها من الاضطهادات التي انصبت عليه، ويطلب منه التدخل لإنصافه، فما أن اطلع على هذه الفرية في الصحف حتى كذبها تكذيبًا قاطعًا، وأرسل في هذا الصدد خطابًا إلى جريدة (جون ترك) Jeune Turc التي كانت تصدر بالفرنسية في الأستانة يدل على علو نفسه وبطولته، قال:

«إني لو حكم عليَّ بالموت، وكانت حياتي معلقة على كلمة تخرج من فم وزير إنجليزي، فضلت ألف ميتة على مخاطبة هذا الوزير في شأني، فلقد رفضت طلب العفو عني من الخديوي وهو حاكم البلاد الشرعي عندما حكم عليَّ في العام الماضي بالسجن ستة أشهر، وفضلت البقاء مسجونًا على إمضاء طلب العفو».

وبلغه أيضًا سنة (١٩١٢م) وهو بالأستانة أن الخديوي ومحمد سعيد باشا رئيس الوزارة، أشاعا لمحدثيهما أن الأول أرسل إليه ثلاثمائة جنيه مساعدة له على السفر، وأنه هو الذي حضه على الهجرة من مصر، ولما كان هذا الخبر كذبًا وميناً، ثارت نفسه، لما تضمنه من المساس بكرامته، فلم يكتف بتكذيبه لمن نقلوه إليه؛ بل أرسل خطابًا مسجلًا إلى الخديوي بسرايه بالبوسفور؛ إذ كان بالأستانة صيف ذلك العام، يكذب الخبر بلهجة شديدة تدل على أنه وهو في محنته لم يبال غضب ولي الأمر، فوق غضب الاحتلال، قال رحمه الله:

«صاري يار في ١١ يونية سنة ١٩١٢م

سمو خديوي مصر:

لقد علمت من الأخبار الخصوصية الواردة من مصر أنكم كلفتم أحد إخواني ممن يترددون عليكم بأن ينصحني بالسفر عقب استجوابي بالنيابة، وأنكم سلمتم له مبلغًا من المال ليوصله إليَّ مساعدة لي على مصاريف السفر، واسم هذا السخص معلوم عندي؛ ولكني أكتمه الآن، فاستغربت جدًّا حصول هذا الأمر بعد ما كتبته لكم بخصوص حادثة ... والثلاثمائة جنيه التي أخذها باسمي، وطلبت منكم عمل تحقيق بخصوصها، ولكنكم أهملتم أمرها، وبعد أن أعلمتكم أني أترفع عن قبول أي مساعدة منكم، ولو كنت في أحط دركات الفقر مع أني بحمد الله في سعة من العيش، فلتكونوا على ثقة بأن كل ما يؤخذ منكم باسمي هو من باب النصب، وإني لا أقبل ولن أقبل منكم أي مساعدة، ما دامت مهمتي الجهاد في تحرير البلاد من

الإنكليز، ومن كل من يعاونهم على توطيد قدمهم في مصر، كائنًا من كان، والسلام على من اتبع الهدى».

المخلص لمصر

محمد فريد

وقد سعى الخديوي بواسطة أصدقاء الفقيد في أن يتم الصلح بينهما، ولكن فريدًا كان يطلب شروطًا لصالح البلاد، وضمانات لهذه الشروط، ولم يقبل أية وساطة على غير هذا الأساس، ورفض مساعي الصلح، مع حرج مركزه المالي في منفاه، فكان آية في الشمم والإباء.

ولم يقبل الصلح مع الخديوي إلا بعد أن بدأ عرشه يتداعى في أوائل الحرب العظمى الأولى؛ إذ تم الاتفاق بينهما على أساس إعلان الدستور كما تقدم بيانه (ص٣٨١).

مزاياه الثقافية

كان للمترجم إلى جانب وطنيته الصادقة، وأخلاقه العظيمة، مزايا ثقافية عالية، فهو واسع الاطلاع، مشغوف بالدرس والقراءة، ملم بدقائق المسألة المصرية وتاريخها خاصة، والمسألة الشرقية عامة، محيط بالمسائل الدولية جميعها، متتبع لكل تطوراتها، يطلع على كل ما يظهر فيها من المؤلفات والرسائل، وما كتب عنها في الصحف والمجلات.

وتدل مذكراته في تاريخ مصر الحديث التي سبق الكلام عنها (ص٣٣) على ميل مبكر إلى البحوث التاريخية، كما أن كفايته كمؤلف وكاتب قد ظهرت في كتابه في تاريخ محمد علي (البهجة التوفيقية)، وكتابه في تاريخ الدولة العثمانية، وكتابه في تاريخ الرومان، ورحلاته العديدة، ومقالاته العلمية في مجلة الموسوعات وفي الصحف والمجلات عامة.

ومن دلائل سعة اطلاعه اقتناؤه مكتبة نفيسة حوت مجموعة قيمة من الكتب العلمية والتاريخية، وهي التي أهداها إلى نادي المدارس العليا (ص٣٢٧).

وتدل خطبه ومقالاته وأحاديثه في الصحف على نضجه الفكري، واطلاعه الواسع، ودراسته التامة للمسائل السياسية القومية والدولية.

وكان لا يألو جهدًا في تفهيم الشعب دقائق المسألة المصرية؛ لمناسبة الحوادث التي تقع في البلاد، حتى الحوادث التي كانت في ظاهرها لا تنطوي على معان سياسية، فكان يكشف عن مغزاها، وينتهزها فرصة لتبصير الأمة بحالتها، وأذكر له مقالة مسهبة[1] كتبها لمناسبة سفر الخديوي إلى بورسودان في (مارس سنة ١٩٠٩م) لحضور حفلة افتتاح مينائه ألم فيها إلمامًا رائعًا بارتباط السودان بمصر، وتطور السياسة البريطانية فيه، وهي تصلح وحدها لأن تكون تاريخًا للمسألة المصرية، من ناحية اتصالها بالسودان، هذا إلى ما حوته من معاني الوطنية العالية، والأفكار الواسعة الأفق التي تدل على دراسة عميقة لتاريخ مصر السياسي، وإحاطة تامة بموقفها حيال المطامع الأجنبية.

مزاياه الصحفية والخطابية

تتصل مزاياه من هذه الناحية بمزاياه الثقافية.

كان فريد صحفيًّا قديرًا، وله المقالات المستفيضة في الصحف والمجلات، وكان يجيد الكتابة باللغتين العربية والفرنسية، وكان في حياة مصطفى كامل يتولى في غيبته الإشراف على الألوية الثلاثة، ولما تولى رئاسة الحركة الوطنية بعد وفاة مصطفى، كان يشرف إشرافًا مستمرًّا على تحريرها وسياستها، وكان يفيض في مقالاته باللواء والعلم والشعب، وإذا تناول موضوعًا مهمًّا أسهب في الكتابة فيه، وكان مقالاته

(١) نشرت باللواء عدد (٢٢ مارس سنة ١٩٠٩م).

تجمع بين غزارة المادة، وسعة الاطلاع والنضج الفكري، مع حسن الأداء، والقصد في الألفاظ، والبعد عن العبارات الطنانة، وكذلك شأن مقالاته وأحاديثه بالفرنسية.

إن أسلوب المرء صورة من شخصيته كما يقولون، ولذلك تجد في كتابة المترجم آيات التواضع، والركون إلى المعاني السامية، فهي من الخصائص الطبيعية لهذا الرجل الفذ الذي لا يرى في شخصية المرء إلا وسيلة لأداء رسالته، كما لا يرى في الأسلوب إلا طريقة لأداء المعاني.

أمَّا مواهبه الخطابية فكانت دون مواهب مصطفى كامل؛ لأن مصطفى ولد خطيبًا، وكانت الخطابة من أعظم مزاياه، أما الفقيد فلم يكن من طبقته في المواهب الخطابية، وكان في الغالب يتلو خطبه، ولكنها كانت مليئة بالمعاني السديدة والآراء الصائبة والأفكار العالية.

سياسته الوطنية

كانت سياسته الوطنية استمرارًا لسياسة مصطفى كامل، ولا غرو، فقد وضعا معًا قواعدها، وجاهدا معًا في سبيلها، واتخذا الجلاء أساسًا لها؛ والجلاء هو الرمز الصحيح للاستقلال الصحيح؛ ولم يكن الفقيد يقبل فيه هوادة ولا تساهلًا، وكان شديد الحرص على أن تبقى القضية المصرية قضية الجلاء، ولذلك كان يقاوم سياسة الأحزاب الأخرى في عدو لها عن الجلاء ومطابتها إنجلترا بالإصلاحات الداخلية، وكان يرى في هذه الخطة خروجًا على أساس القضية الوطنية.

قال في هذا الصدد: «إنَّ الشعب لا يمكنه أن يصدق بأنه أمة أجنبية بلاد أمة أخرى تساعدها بإخلاص على ترقيها وتمدينها».

وحين سأله المستر كتل العضو بمجلس العموم البريطاني سنة (١٩٠٨م): «ماذا يطلب الحزب الوطني من إنجلترا؟». أجابه على الفور: «نحن لا نطلب شيئًا منها سوى الجلاء، فالجلاء هو الدواء الوحيد للاحتلال».

وقال في خطبته بالإسكندرية في (أغسطس سنة ١٩٠٨م): «ترك بعضهم المطالبة بالجلاء، وسموا هذا التحول اعتدالًا في المبدأ، وما هو إلا خيانة كبرى للوطن وبنيه». وتفيض خطبه وأحاديثه بهذا المعنى.

وإلى جانب الجلاء وتمسكه به، جعل الدستور أساسًا ثانيًا للحركة الوطنية، وهنا أيضًا كان متفقًا في المبدأ والخطة مع الزعيم الأول، ولكنه أبرز دعوة المطالبة بالدستور، وجعل منها حركة عامة، دعا إليها الأمة، ووجهها إلى مطالبة الخديوي بالدستور بالعرائض التي تقدم الكلام عنها (ص٧١). فكانت هذه الحركة جهادًا قويًّا عمليًّا لتقرير النظام الدستوري.

ومن الواجب في هذا المقام أن نعرف فضل فريد على الحركة الوطنية، فقد كان العضد الأيمن لمصطفى في بعثها طول حياته، ثم تولى زعامتها واحتمل أعباءها بعد وفاته، وكانت زعامته لها في ظروف قاسية، أشد من الظروف التي واجهها مصطفى، فكان لفريد الفضل الأكبر في إنقاذها من الانحلال، واستخلاصها من العقبات والأهوال، فلقد تحالفت ضدها قوات عديدة بغية القضاء عليها، ولكنه ثبت لها وتغلب عليها بقوة العقيدة والإيمان، وسار بالحركة الوطنية إلى الأمام، ومهد بجهاده وتضحياته إلى ثورة (١٩١٩م)، فهي غرس الوطنية التي تعهدها على تعاقب السنين والثورات، كما قلت في كتابي عن مصطفى كامل، ليست حركات ميكانيكية، تبدو فجأة للناظرين. بل هي حوادث اجتماعية، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعًا لدرجة استعدادها، ونتيجة لسريان روح الوطنية في نفوس أبنائها، فلولا السنون التي قضاها الفقيد في الكفاح لمرت سنة (١٩١٩م) كما تمر غيرها من السنين، دون أن يظهر فيها غرس الوطنية، أو تتجلى فيها روح الثورة، ولعله أشار إلى هذا المعنى في رسالته إلى الأمة في سبتمبر سنة (١٩١٩م) إذ قال: «نشكر الله على هذه النتيجة الحسنة، التي دلت على أن ما ألقاه مؤسسو الحركة الوطنية من البذور في تلك

الأرض الخصبة، قد نبت وترعرع ساقه، ثم أزهر وظهرت ثماره الشهية التي قد قرب زمن جنيها».

سبيله إلى دعوته

كانت سبيله إلى دعوته الخطابة والصحافة والتأليف؛ قال في هذا الصدد:

«إن الذي يعتمد على القلم واللسان، فيملي عليهما ما وهبه الله من علم وبيان، ويجمع بهما القلوب، ليصوغ منها أمة حية راقية، لهو أعظم مشيد للمجد، فوق أمتن الأسس».

كانت خطبه ومقالاته ومؤلفاته متجهة إلى غرس روح الوطنية الصادقة في النفوس، وحث الأمة على استعادة مجدها القديم، ومباراة الأمم الحية في التمسك باستقلالها وحريتها. ومن هنا جاء ميله إلى التاريخ المصري والتاريخ العام، فاتخذ من التاريخ مدرسة لترقية الروح الوطنية في النفوس، وتثقيف الشعب وتهذيبه. وكان يعني بتبصير المصريين بتاريخهم، واطلاعهم على تاريخ الأمم الحية؛ قال في هذا الصدد في ختام خطبته بدار التمثيل العربي (يوم ١٧ إبريل سنة ١٩٠٨م): «وآخر كلمة ألقيها على حضراتكم أن تطالعوا تاريخ الأمم التي حصلت على استقلالها المسلوب، وأن تمعنوا النظر في الطرق التي اتخذوها للوصول إلى هذه الغاية، وأن تقفوا على أحوال بولونيا وفنلندا وإيرلنده، وتتشبهوا برجالهم، وتسيروا على خطواتهم، وأن ينشر القادرون منكم الرسائل والكتب في تاريخ هذه الأمم الحية لتكون ذكرى لغيركم من بني الوطن، فإن الذكرى تنفع المؤمنين».

وكان شديد العناية بتعريف الأمة سابق مجدها، وهو أول من فكر في إنشاء متحف حربي يحتوي على مفاخر الجيش المصري.

قال في هذا الصدد تعليقًا على زيارته للمتحف الحربي ببرلين: «أما نحن فلا نجد أثرًا لما غنمته جنودنا من الروسيين والصربيين في الحرب الأخيرة، أو في جزيرة كريد

واليونان في عهد إبراهيم باشا؛ بل ضاع كل ذلك بسبب إهمال حكامنا، كما أخذت أسلاب المهدي إلى لوندره ووضعت في متاحفها. ومما يؤسف له أن أسماء من انتصر من قواد الجيوش المصرية أصبح نسيًا منسيًّا لعدم الاهتمام بتاريخ بلادنا في مدارسنا. فمتى يهبنا الله حكومة أهلية عارفة بواجباتها؟ اللّٰهم إننا لا ننالها إلا يوم أن نستحقها بمجهوداتنا؛ عملًا بالحديث الشريف: «**كما تكونوا يولَّى عليكم**»».

وكان يعمل على إعداد الجيل إعدادًا حربيًّا، ليتخلق بأخلاق الرجولة والشجاعة، وإذ لم يكن بمصر في ذلك العهد مدارس حربية بالمعنى الصحيح، فقد كان يحث الشبان المصريين على الالتحاق بالمدارس الحربية بالأستانة، وكان يمهد لهم السبيل، ويعمل لهم كل التسهيلات للالتحاق بها؛ لأنه كان يرمي إلى خلق جيل جديد مشبع بالروح العسكرية.

وكان شديد التمسك بالديمقراطية الحقة، ولذلك كان يقاوم الرتب والألقاب ويدعو إلى إلغائها، وقد كتب في هذه الدعوة غير مرة، قال في (العلم) عدد (٢٦ ديسمبر ١٩١٠م):

«لقد أدركت الأمم الراقية مضار منح الألقاب الضخمة والوسامات المذهبة أو المرصعة، وأنه لا يليق بالعقلاء السعي وراءها، ولذلك ألغيت بتاتًا في جميع الولايات الأميركية الشمالية والجنوبية، وفي جمهورية سويسرا، وقل استعمالها في أغلب الممالك، وقد سارت الدول العثمانية على هذا النهج من عهد إعلان الدستور، فلم تمنح رتبة أو نيشانًا لشخص ما من غير الجنود المجاهدين في سبيل الوطن، وأغلب وزرائها الحاليين لا رتب لديهم؛ بل يطلق عليهم لقب بك، كما يطلق على أي إنسان، فإن هذا اللقب يعادل لقب سيد، أو أفندي، أو مسيو، وينتظر إصدار قانون بإبطال هذه الألقاب والأوسمة في عهد قريب. تالله إنها لزخارف لفظية، تعلم الأمة ما تحتها من حب للوظائف، وحرص على الرواتب الباهظة التي تزاد للموظفين كل

سنة حتى يزيد تعلقهم بها بنسبة هذه الزيادات السنوية، إلى أن أصبح راتب رئيس القلم في بلادنا يعادل مرتب وزير في البلاد الأخرى».

وكان يبث معاني الوطنية ومبادئها في النفوس، ولا يوجه خطابه إلى الشباب وحده، بل يحث الطبقات كافة على الأخذ بها، وكثيرًا ما وجه الخطاب إلى الشيوخ من أعضاء مجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية، يستحثهم على الاضطلاع بواجباتهم، ولو في تلك الدائرة الضيقة التي كانت مضروبة حول هاتين الهيئتين.

عمله للوحدة القومية

للفقيد فضل آخر على الحركة الوطنية، هو عمله للوحدة القومية، فقد كان من ناحية يدعو دائمًا إلى الاتحاد بين المسلمين والأقباط، وسار في هذه الناحية على سنة سلفه العظيم، قال في خطبته في حفلة تأبينه، مشيدًا بالوحدة الوطنية مناجيًا روح مصطفى «قد تحقق ما كنت تؤمله، وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين ومسيحيين وإسرائليين كلها مجتمعة كرجل واحد، متحدة الأفكار والقلوب».

وقال في خطبته بالإسكندرية يوم (٥ أغسطس سنة ١٩٠٧م): «انبذو الشقاق والاختلاف الديني، وكونوا جميعًا إخواننا، أبناء وطن واحد؛ أي كونوا مصريين قبل كل شيء».

وكان من ناحية أخرى يدعو إلى السياسة القومية دون الحزبية، وعلى أن الحزب الوطني كان أقوى الأحزاب، فإنه كان لا يفتأ يمد يده إلى الأحزاب الأخرى، يطلب إليها التعاون والتضامن، برغم ما بينهما من الفوارق في المبدأ ومع إيمانه بمبادئ الحزب الوطني، وبشعاره (الجلاء) لم يكن للنعرة الحزبية سلطان عليه، وقد عد ذلك بعض أنصاره ضعفًا، ولم يكن هذا من الضعف في شيء، بل كان ثمرة الوطنية التي تتأجج في نفسه؛ لأن الأحزاب ليست غاية؛ بل هي وسيلة لسعادة الشعب ورعاية

مصالحه، هذا إلى أن توحيد الصفوف هو أول ما تسعى إليه الأمم في جهادها، وفي حياتها القومية، من أجل ذلك كان يدعو في كل فرصة إلى توحيد الكلمة وضم الصفوف.

قال في خطبته بدار التمثيل العربي يوم (١٧ إبريل سنة ١٩٠٨م): «والدواء الوحيد لهذه الأدواء التي لا تعد، والتي تئن منها الأمة وتشتكي، هو الاتحاد، هو التضافر، هو التكاتف على ما فيه الصالح العام».

وقال فيها: «فلو كنا يدًا واحدة، وقلبًا واحدًا، ونفسًا واحدة، في أجسام متعددة، ونبذنا التفرق والشقاق والانقسام إلى أحزاب متعددة، لا فارق في الحقيقة بين مبادئنا، لنلنا كل ما نطلبه من دستور، ومجلس نيابي، ومراقبة فعلية على تصرفات الحكومة، ولحصلنا على إخراج الإنجليز من بلادنا العزيزة».

وقال في (أكتوبر سنة ١٩٠٨م): «إن اتحاد الخصوم علينا يرشدنا إلى الواجب نحو بلادنا، وهو أن نكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا».

وقال في (فبراير سنة ١٩٠٩م): «تيقنوا أن لا قوة في هذا العالم يمكنها الوقوف أمام الرأي العام إذا اجتمع، أو أمام الأمة إذا اتحدت، فالاتحاد الاتحاد، والثبات الثبات، والمثابرة المثابرة!».

وقال في حديث له بجريدة (الإكلير) (يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٩م) عقب انفضاض مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف: «لا يعقل أن يوجد في بلاد محتلة بالأجنبي حزب واحد يختلف في جوهر مسألة الاحتلال الإنجليزي، وإذا وجد حزب مالًا يجاهر بالجلاء صراحة، مدفوعًا بعامل الإفراط في الخوف، فسكوته يقابل صراحتنا، إلى أن قال: «إن وجود الأحزاب الثلاثة ممثلة في المؤتمر هو أول خطوة نحو الاتحاد، ولم يبق أمامنا إلا أن نستمر في هذا الطريق ونحذو حذو الأتراك الذين كونوا لجنة الاتحاد والترقي، هذه اللجنة التي جمعت بين الأحزاب بدون نظر إلى اختلاف في

الدين أو في الجنس، وإني مؤمل كثيرًا في الاتحاد، وبخاصة لأنه ليس لدينا اختلاف جنسي أو مذهبي يشبه الاختلاف الذي في تركيا».

ومن دلائل حرصه على توحيد كلمة الأمة، دعوته إلى انتخاب الأكفاء، من أي حزب كانوا للهيئات النيابية التي كانت قائمة في ذلك الحين، كمجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية، ثم الجمعية التشريعية، ولو اتبع سياسة احتكار المقاعد النيابية، لكان في استطاعته بنفوذه بين الجماهير إقصاء من لم يكونوا من حزبه من المرشحين، ولكن الفقيد نظر إلى الحياة النيابية كأداة للجهاد، وإصلاح شئون البلاد، ولا يثمر الجهاد ولا تصلح حالة البلاد إذا سادها التفرق والانقسام، فكانت سنته في الانتخابات ترك الحرية للناخبين يختارون الأكفاء المخلصين، بصرف النظر عن حزبيتهم، ولذلك أيد الحزب الوطني سعدًا في انتخابات الجمعية التشريعية سنة (١٩١٣م). ولولا تأييده إياه لما فاز على مزاحمه. على أن هذه الروح الطيبة التي كان الفقيد يدعو إليها، قد قوبلت من الأحزاب الأخرى التنكر، وتدبير المكايد، وقوبلت من سعد بنكران الجميل، فقد رأيت مما أوردناه بالصفحة (٤٠٤) أنه حين تألف الوفد برئاسته وسافر إلى باريس في (إبريل سنة ١٩١٩م) أرسل إليه الفقيد يهنئه، ويرجو له التوفيق والنجاح، فلم يرد سعد على هذه التهنئة، وعمل على إقصائه عن ميدان الجهاد.

ففريد: فوق فضله على الحركة الوطنية بجهاده في بعثها وتكوينها والسير بها إلى الأمام، له كذلك عليها فضل العمل على تدعيم أساسها، بتوحيد الكلمة والتأليف بين القلوب، وصون الوحدة الوطنية التي هي العامل الأول في حياة الشعوب وحفظ كيانها.

سياسته الشرقية والإسلامية

وسياسته الشرقية والإسلامية هي سياسة مصطفى كامل، فقد عمل على توثيق عرى التعاون والتضامن بين الأمم الشرقية، وكان يدعو إلى هذه الغاية في مقالاته

وخطبه وأحاديثه، وأنشأ وهو في منفاه بسويسرا (جمعية ترقي الإسلام)، وأنشأ لها مجلة باللغة الفرنسية، وقد تقدم الكلام عنها في مواضعه (ص٣٣٨).

وكان يحرص على توثيق علاقة مصر بتركيا، لكي يحبط مساعي السياسة الإنجليزية التي كانت ترمي إلى حمل الحكومة التركية بمختلف الوسائل على الاعتراف بمركز الاحتلال البريطاني في مصر، والتنازل لإنجلترا عن سيادتها الاسمية.

ولقد كان في ذلك متفقًا رأيًا مع السياسيين الأوربيين المخلصين لمصر، فقد كتب المستر بلنت نصير المسألة المصرية في مذكراته سنة (١٩٠٨م) يقول: «وقد نصحت لهم -أي للوطنيين المصريين- بالحرص على أن تكون صلات المصريين بالدولة العثمانية حسنة بوجه خاص؛ وذلك لأن العلاقة التي تربط مصر بالإمبراطورية العثمانية هي في الواقع الضمان الحقيقي لسلامتها من مطامع إنجلترا». وكرر هذه النصيحة في رسالته إلى مؤتمر جنيف في (سبتمبر سنة ١٩٠٩م) إذ قال: «لا تسمحوا بقطع صلاتكم بالدول العثمانية؛ لأن مركزكم فيها يحول دون أطماع الأجانب فيكم، وبالرغم من الصداقة القائمة بين الأستانة ولندن، فلا يمكنني أن أصدق أن الإمبراطورية الإسلامية الكبرى يمكنها بأي حال أن تترككم لدولة مسيحية». وكرر ذلك في رسالته إلى مؤتمر بروكسل سنة (١٩١٠م).

على أن المترجم وقف من تركيا ورجالها موقف الإباء والكرامة، وكان يشعر دائمًا بأن زعامته المصرية تجعل منه المجاهد الحريص على استقلال مصر وكرامتها وعزتها القومية.

ففي (أكتوبر سنة ١٩٠٩م) نشرت جريدة (الطان) الباريسية تصريحًا لحسين حلمي باشا الصدر الأعظم، على إثر القرارات التي أصدرها مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف، قال فيه: «إنه لا علاقة للحكومة التركية بالحزب الوطني، وليس لها ما تقول عن الحالة في مصر، التي تراها حسنة». فانبرى الفقيد للرد على الصدر

الأعظم، وقال في حديث له بجريدة النوفيل الباريسية: إنه حين كان بالأستانة قابل الصدر الأعظم ذاته، وكبار الرجال السياسيين في تركيا، وإنهم أجمعوا على القول بأن تركيا لا تعترف قط بالاحتلال الإنجليزي، وأنها إنما تنتظر الفرصة المناسبة لفتح باب المسألة المصرية. وأضاف إلى ذلك قوله: «إن إهمال تركيا المسألة المصرية وتخليها عنها هو انتحار لتركيا، ومهما يكن من الأمر فإن الوطنيين المصريين صرحوا مرارًا أنهم إنما يعتمدون على قواهم ومجهوداتهم في جهادهم لتحرير بلادهم».

وأثارت تصريحات حسين حلمي باشا استياء الصحافة التركية الحرة، ولم تنته ضجة الاستياء منها حتى كذب الصدر الأعظم الحديث، ونشر تصحيحًا له فحواه أن مكاتب الطان سأله: هل بينكم وبين أحرار المصريين علاقة ما؟ وهل تساعدونهم في حركتهم؟ فأجابه: «إن الحكومة العثمانية ليست لها علاقة ما بأحرار المصريين وليس لنا تأثير في حركتهم.

وقد رأيت مما أوردناه (ص ٣٩٠) كيف استمسك المترجم باستقلال مصر حيال تركيا خلال الحرب العالمية الأولى.

الوطنية الشاملة

جهوده الإنشائية في التعليم والاقتصاد والاجتماع

لم تقتصر جهود المترجم على الجانب السياسي من الحركة الوطنية؛ بل وجه جزءًا كبيرًا منها إلى الجانب الإنشائي، في التعليم والاقتصاد والاجتماع. وكان لا يخلو تفكيره في خطبه أو أحاديثه أو في خاصة نفسه من العمل في هذه النواحي.

ففي ناحية التعليم العالي قد ساهم سنة (١٩٠٦م) في إنشاء الجامعة المصرية، وكان من أعضاء أول اجتماع عقد لتأسيسها يوم (الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦م) بدار سعد بك زغلول (باشا) المستشار بمحكمة الاستئناف، واكتتب بمائتي جنيه وبمثل هذا المبلغ سنويًّا، وهو أقصى مبلغ تبرع به الحاضرون (في ذلك الاجتماع) بعد

مصطفى كامل بك الغمراوي الذي تبرع بخمسمائة جنيه، وحسن بك جمجوم الذي تبرع بألف جنيه. وقد انتخبه المكتتبون عضوًا بلجنة إنشاء الجامعة، وانتخب سكرتيرًا له، بدلًا من قاسم بك أمين، الذي انتخب نائب رئيس لها، حين انسحب سعد زغلول باشا من المشروع، على إثر تعيينه وزيرًا للمعارف.

وفي التعليم الثانوي كان يدعو إلى إنشاء مدرسة ثانوية في عاصمة كل مديرية (ص١٤٠).

وفي ناحية التعليم الابتدائي كان منذ سنة (١٨٩١م) من الأعضاء المؤسسين للجمعية الخيرية الإسلامية، التي ساهمت في نشر التعليم الابتدائي في مصر، وظل عضوًا بمجلس إدارتها خمس عشرة سنة.

وكان يدعو دائمًا إلى تعميم التعليم الابتدائي، وجعله إلزاميًّا ومجانيًّا، لكل مصر ومصرية (ص١٤٠).

وعني بنشر التعليم الابتدائي بين طبقات العامة، فسعى إلى تأسيس (مدارس الشعب) الليلية، لتعليم الصناع والعمال ومن إليهم مجانًا، وأسست فعلًا عدة مدارس في العاصمة والبنادر؛ تلبية لدعوته، تطوع فيها أنصاره وتلاميذه لإلقاء الدروس فيها كل ليلة، وكان لا يفتأ يدعو في خطبه إلى تأييد هذا المشروع (ص١٤٥).

وتتجلى جهوده الاقتصادية والاجتماعية في دراسته الميزانية في كثير من خطبه (انظر: ص١٤٢ و٢٥٠)، ودعوته إلى تعديلها للإنفاق على إصلاح حالة الشعب ورخائه، والعناية بالصحة العامة وبالأحياء الوطنية (ص١٤٧ و٢٥١)، ودعوته إلى تعديل الضرائب، والعدل في فرضها، وتخفيف ما يثقل كاهل الفلاحين منها (ص١٤٣)، وتعديل الرسوم الجمركية (ص١٤٤) ودعوته إلى وضع تشريع للعمال يراعي مصالحهم، ويرفع عنهم البؤس والجهل والإرهاق، (ص١٠٨ و١٤٥) وعنايته بإنشاء النقابات للعمال والصناع لترقية أحوالهم، والعناية بشئونهم،

ومساهمته في تأسيس أول نقابة بالقاهرة، وهي نقابة عمال الصنائع اليدوية، وإنشاء ناد لها ببولاق، وكان أول رئيس لها هو المرحوم علي بك ثروت، من خاصة أصدقائه وأنصاره الوطنيين (ص١٠٨ و١٤٥ و٢٩٦)، ودعوته كذلك إلى تأييد الحركة التعاونية، وإصلاح حالة الفلاح (ص٢٩٤).

وقد وجه تلاميذه إلى بذل جهودهم لإحياء الحركة التعاونية والمشروعات الاقتصادية، اعتبر ذلك في خطابه إلي (ص٤٧٠)، ودعوته لأنصاره وتلاميذه إلى معاضدة المشروعات الاقتصادية. وقوله في هذا الصدد: «هذا ميدان واسع للجميع، فادخلوا فيه بهمة ونشاط. فاستقلال مصر الاقتصادي هو مقدمة لاستقلالها السياسي، وإشارته في خطاب آخر (ص٤٧٣) إلى رغبته في أن يكون الحزب الوطني حزب إنشاء وتعمير.

تضحياته

إنَّ حياة محمد فريد هي سفر خالد من التضحية في سبيل الوطن، وإن أصح تعريف له هو ما جعلناه عنوانًا لكتابه، فهو حقًّا «رمز الإخلاص والتضحية»، وكأنه كان يشير إلى نفسه حين قال في (فبراير سنة ١٩٠٩م): «إن من قضى زهرة حياته، وضحى بمستقبله لخدمة الوطني، لا يتحول عن مبدئه الذي عاش عليه مهما أريد التأثير فيه بالوعد أو الوعيد والتهديد. ومهما حمله السير في الطريق الذي اختاره لنفسه من الخسائر المادية. وإن من كانت هذه صفاته وهذا مبلغ اعتقاده، لا تغره ابتسامة، ولا تخدعه مقابلة، ولا يحيد عن مبدئه إلا بالخروج من هذا العالم الفاني».

كانت حياته سلسلة من التضحيات، فلقد ضحى أولًا بالمناصب؛ إذ بدأ بالاستقالة من وظيفته، فخالف بذلك سنة معاصريه من حملة الشهادات العالية؛ إذ كانت المناصب الحكومية (ولا تزال) قبله آمالهم، ولو هو بقي في منصبه، ودرج على ما درج عليه غيره، لوصل بكفايته الممتازة إلى أرفع المناصب.

فهذه أول صفحة من صفحات تضحياته: «ولقد عرضت عليه المناصب الدولة، بعد أن تولى زعامة الحركة الوطنية، فطلب إليه محمد سعيد باشا سنة (١٩١٠م) أن يشترك في وزارته، ولكنه رفض، وقال له: كيف تطلب مني أن أشترك في حكم البلاد في ظل الاحتلال، وأنا أجاهد الاحتلال؟ وكيف يتفق النقيضان؟

وفي (أكتوبر سنة ١٩١٠م) عقب انتهاء مؤتمر بروكسل، قابله بباريس رسول جاء من لندن، وأخبره أنه مكلف بأن يعرض عليه إحدى الوزارات، وأن من كلفه بذلك يعلم حرج مركزه المالي، وأنه مستعد لأداء كل ما يلزم لتسوية هذا المركز، وحفظ أملاكه، فرفض ما عرض عليه، وقال: «إن ضياع ثروتي لا يؤثر على مبادئي، وإني أرفض أي مركز في الحكومة ما دام الإنجليز في مصر»[١]. وقابله الرسول ثانية بالأستانة في (ديسمبر سنة ١٩١٠م) فأعاد عليه العرض، وقال له: «هل لم تزل مصرًّا على رأيك؟». فأجاب: «حتى مماتي، وها أنا ذاهب إلى مصر لأحبس»[٢]. وقد كان ما قال، فبدلًا من أن يعود إلى مصر ليقبل الوزارة، عاد لكي يدخل السجن، ولسان حاله يقول: {رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه}.

وعرضت عليه الحكومة العثمانية في منفاه بعض المناصب، ومنها منصب عميد كلية الحقوق بالأستانة؛ ولكنه اعتذر عن عدم قبولها، لكي يحتفظ باستقلاله في جهاده.

وإلى جانب تضحيته بالمناصب، ضحى بماله، فإنه منذ الساعة الأولى كان يبذل المال بسخاء في سبيل مصر، وقد فقد ثروته في الحركة الوطنية، فقد ترك والده أحمد فريد باشا لورثته نحو ألف ومائتي فدان؛ منها (٦٥٣) فدانًا موقوفة، بموجب حجة وقف أنشأها سنة (١٨٩٣م) يخص الفقيد من هذا الوقف (١٥٠) فدانًا، ومن الملك (١٥٠) فدانًا مثلها، فكان له من وقف وملك ثلاثمائة فدان، من أجود الأطيان،

(١) عن مقالة للفقيد في الهلال العثماني عدد (٢٤ مايو سنة ١٩١٢م).

(٢) نفس المرجع.

وترك له والده عدا ذلك قصرًا بشارع شبرا، مساحة أرضه وحدها خمسة أفدنة، من أراضي البناء التي ارتفعت قيمتها، وجزئت وصارت تباع بالأمتار، فنال المترجم منها ربحًا كبيرًا، وأفاد كثيرًا من اشتغاله بالمحاماة، إذ حاز فيها ثقة الشخصيات والعائلات الكبيرة، وناله من ذلك ربح وفير، وقد استطاع أن ينمي الثروة التي تركها له والده، واقتنى عمارتين بشارع حمدي بالظاهر، ولكنه رحمه الله لم يضن على الحركة الوطنية بمال طول حياته، وانتهى به البذل إلى ضياع كل ثروته، ولم يبق له سوى المائة والخمسين فدانًا الموقوفة، كما أنه استهدف للمكايد المالية (وما أكثرها) من الاحتلال والحكومة، وتحريض البنوك والماليين عليه، وزادت حالته المالية ارتباكًا أثناء نفيه، حتى صار ريع أطيانه الموقوفة هدفًا لتنفيذات الدائنين، وكان بعض هؤلاء الدائنين يمعن في إجراءاته، بإيعاز من الحكومة، أو إرضاء لها، فضحى المترجم من هذه الناحية بالشيء الكثير.

وثمة ناحية أخرى من التضحية، ذلك أن الحركة الوطنية التي رفع لواءها، واحتمل أعباءها، لم تكن موصلة إلى السلطة والجاه، بل هي حياة الكفاح المقرون بالاضطهاد والمغارم، لا بالأطماع والمغانم، المقطوع بأن لا فائدة منه للمساهمين فيه، فالطريق الذي سلكه هو طريق التضحية الخالصة المستمرة، ولقد كان عالمًا بهذا المصير؛ إذ لم يكن يلوح في الأفق أي أمل قريب في تبدل الحال، أو انتهاء الاحتلال، وتولى فريد زعامة الحركة الوطنية موطنًا النفس على هذه التضحيات؛ قال في هذا الصدد في خطبته يوم (١٧ إبريل سنة ١٩٠٨م): «برهن الحزب الوطني على ثباته باجتماعه في رابع يوم وفاة المرحوم (مصطفى كامل)، وإجماع أعضائه على انتخاب خادمكم هذا، لوثوقكم به أكثر من ثقته بنفسه، ووضعوا على كتفيه هذا العبء الثقيل، الذي دك قوى سلفه، وبرى جسمه، حتى قضى في زهرة شبابه، فقبلت مستعينًا بالله وبجميع أعضاء الحزب الوطني، مضحيًا وقتي وحياتي في سبيل خدمة الوطن وأهله».

ففي هذه الكلمات يبدو مبلغ استعداده للتضحية، ويتجلى شعوره بأن زعامة الحركة الوطنية كانت مصدر العناء والآلام لمن يحمل لواءها، وأنها قضت على حياة سلفه العظيم، ومع ذلك فقد احتمل أعباءها بشجاعة وإقدام، فبرهن على ما أشربت نفسه من روح البطولة والفداء، ففريد وأمثال فريد؛ هم الذين عبدوا طريق الحركة الوطنية؛ لأنهم غرسوا بذرة التضحية، التي هي قوام حياة الأمم، وأساس استقلالها وعظمتها، ولقد قال المستر كير هاردي زعيم حزب العمال في إنجلترا لبعض الوطنيين المصريين في مؤتمر بروكسل: «إن رئيسكم هو من أعظم الزعماء في العالم».

ضحى الفقيد فوق ذلك براحته وحريته وهنائه، فاستهدف للسجن والنفي، كما رأيت في سياق الكتاب، وكان يتلقى الشدائد والمحن راضيًا، موطنًا النفس على احتمال كل تضحية مهما عظمت، وزادت تضحياته في منفاه بثباته على الجهاد، فلو هو عدل عن مبدئه وخطته، لعاد إلى مصر معززًا من الحكومة، مكرمًا من الاحتلال، ولكنه رفض أن يعود، وأن ينعم بالمال والمناصب، مؤثرًا متابعة جهاده الرائع! وما يكتنفه من متاعب وحرمان.

ولقد أثرت هذه التضحيات في ماله ثم في صحته، ففي السنوات الأخيرة التي عاشها في منفاه بأوربا، ساءت حالته الصحية، لوجوده على الدوام في جو بارد لم يتعوده من قبل؛ وما أصابه في هذه السنوات من تضاؤل موارده المالية، فهذه المحنة المزدوجة كانت تكفي لتسحق روح التضحية في النفس الممتازة، بله العادية، وبخاصة إذا انضم إليها خذلان الكثيرين إياه، وتنكرهم له، وانصرافهم عنه، حتى لقد كان بعض معارفه وأصدقائه يسيحون كل عام في أوربا، فيتجنبون مقابلته، أو السؤال عنه؛ لكي لا يستهدفوا غضب الاحتلال أو الحكومة، ولقد كانت كلمة واحدة تصدر منه كافية لكي يستبدل من هذا الخذلان ملقًا ودهانًا، ومن العناء راحة، ومن التعب طمأنينة وهدوء بال، ومن العسر رخاء ويسرًا، ولكنه أبى أن يقول هذه الكلمة؛ كلمة التسليم في مبادئه، وشهد بنفسه تحول الكثيرين عن الجهاد

الوطني إلى التهافت على المناصب والألقاب؛ ولكن كل هذه الملابسات لم تصرفه عن متابعة جهاده، على ما في طريقه من عقبات وأشواك، وما يكتنفه من متاعب وأهوال، فهو حقًّا رمز الإخلاص والتضحية.

بلغت تضحياته قمتها حين استهدفت صحته للخطر؛ فقد فحص عند الدكتور شرونف Chrumpf، وكان قد تعرف به ببرلين في (سبتمبر سنة ١٩١٥م)، فألفاه مصابًا بمرض الكبد، ونصح له أن يعدل عن سياسته، ويتفق مع الإنجليز على أساس الحماية، لكي يستطيع العودة إلى مصر والإقامة فيها؛ لأن صحته تحتم عليه الإقامة في بلاد حارة، ومع ما بدي في حديث الطبيب من نذير الخطر على صحته وحياته، فقد رفض النصيحة قائلًا: إنه لا يقبل الحماية مطلقًا ولا ما يشبه الحماية، ولا يبالي ما يصيب صحته وحياته في سبيل مبدئه وواجبه.

وفي (أواخر سنة ١٩١٨م) كانت صحته تقتضي الراحة التامة، والانقطاع عن الجهاد؛ ولكنه مضى في طريقه لا يني عن العمل، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وفي سنة (١٩١٩م) زادت صحته اعتلالًا، فجدد الدكتور شرونف النصيحة له، وأفضى إليه أنه قابل من أجله بعض الشخصيات البارزة من الإنجليز في «برن» عاصمة سويسرا، ممن لهم علاقة بالسفارة البريطانية بها، وتحدث إليهم في شأنه، فسمع منهم تقديرًا كبيرًا له وثناء عليه، واعترافًا بأنه الزعيم المخلص الخالي من الأغراض الشخصية، وأنهم لا يتأخرون عن تحقيق رغبة الدكتور شرونف إذا أقنعه بقبول الاتفاق مع الإنجليز، على أساس الحماية؛ وكان مرض الكبد قد زاد إلحاحًا عليه، فأعاد الطبيب النصح له بقبول هذا الأساس الذي تقتضيه الظروف السياسية، وأبان له حاجته القصوى إلى مناخ مصر، وأنه لو أقام الشتاء المقبل (شتاء سنة ١٩١٩م) في جو أوربا، كان ذلك خطرًا على حياته؛ ولكن الفقيد لم يكترث لهذا النذير، ورفض نصيحة الطبيب، ومضى في سبيله، واشتد به المرض فعلًا في (شتاء

سنة ١٩١٩م) فأودى بحياته، وتوج رحمه الله تضحياته بالتضحية الكبرى؛ ألا وهي تضحية حياته في سبيل مبدئه ووطنه!

الخاتمة

فحياة فريد هي مثل خالد للوطنية والإخلاص، والتضحية في سبيل مصر؛ فلقد ضحى من أجلها بكل ما يحرص عليه الناس في الحياة، وبكل ما هو عزيز عند الإنسان، وضحى آخر الأمر بحياته؛ إذ جعلها فداء لحياة الوطن، فهو جدير حقًّا بتقدير الوطن، وجدير بنا أن ننقش على قبره قول حافظ في رثائه:

هاهُنا قبرُ شهيدٍ في هَوى ... أمَّةٍ أيقظها ثم رقدْ!

obeikan.com